واقع التأهيل الجامعي لطلبة قسم الترجمة "بجامعة الجزائر" انطلاقا من تدريس اللغة العربية

حلومة التجاني
معهد الترجمة، جامعة الجزائر2 - الجزائر-
tidj.h2006@yahoo.fr

ملخص:

الترجمة وسيلة للتواصل الحضاري وتقارب الأفكار وهي علم واجب الدراسة على أسس صحيحة تمكننا من تأهيل مترجمين قادرين على نقل معارف الآخر، لذلك فإن الجزء الأكبر من المسؤولية يقع على عاتق الجامعة إزاء تكوين المترجم فهي القاعدة التي يقوم عليها بناء الترجمة قبل أن ينطلق طالب الترجمة إلى سوقها، لذلك وجب النظر في العلل التي تعوق دون تكوين مترجم كفء.

كلمات مفتاحية: اللغة العربية؛ أقسام الترجمة؛ طلبة؛ أساتذة؛ جامعة؛ تأهيل؛ تدريس.

كانت الترجمة ولازالت هدفا حضاريا تسعى الأمّم إلى تحقيقه وتحسينه بشتّى الطرق والوسائل، خاصة وأنّنا نعيش تاريخا غير مسبوق بالانجازات على المستويات العلمية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وتظلّ هذه المعارف بعيدة عن المتناول أو مجهولة لدى المواطن العربي فتجعله مهمّشا يعيش العزلة على هامش الحياة، خاصة وأنّ العولمة باتت تهدد العالم من حيث جعلها له قرية صغيرة تتعامل بلغة واحدة، فكلّ ما هو علمي أو أدبي هو باللغة الانجليزية وأن كان بغيرها وجب أن يترجم إليها. وليس من حلّ للاتصال بهذه العلوم

والمعارف إلاّ وسيلة واحدة هي نقل ما عند الغرب إلى لغتنا العربية عبر الترجمة الجيّدة المؤدية لأهدافها وأغراضها.

والحقيقة أن الترجمة ليست اختراعا جديدا ابن العصر وإنّما هي آلة قديمة توسّل بها العرب إبّان أوج حضارتهم فنقلوا علـوم اليونان وآداب الفرس والهند كالفلسفة والرياضيات والطب والكيمياء والقصص ككليلة ودمنة إلى لغتهم العربية فأبدعوا فيها وجعلوا للعرب حضارة عرفت بالحضارة العربية الإسلامية إذ الفضل كلّه للإسلام لما يحويه من تعاليم تحثّ علـى تعلّم اللغات ومجابهة الأعداء بها اجتماعيا وسياسيا وعقائديا وثقافيا.

لكنّ النكسات والنكبات السياسية والاجتماعية كان لها الأثر البالغ على الحياة الثقافية بما فيها حركة الترجمة فشلّت فاعليتها ولم يعد لها هذا الدّور الذي أنيطت به، فلمن يترجم المترجم؟ لأمة تسودها الأمية! حتى أنّها لا تتقن اللّغة التي وصفت بها، فكيف باللّغات الأخرى؛ يقول محمود درويش:

واجهش يا ابن أمي باللّغة

لغة تفتّش عن بنيها، عن أراضيها، وراويها

تموت ككلّ من فيها وترمى في المعاجم[1]

ولسنا ننكر أنّه في عصر النهضة كانت هناك محاولات لنقل المعارف هي في أغلبها أدبية صرفة يغلب عليها التصرف كفعل مصطفى لطفي المنفلوطي (1876-1924م) في مؤلفه الفضيلة الذي نقله عن قصة **Paul et Virginie** للكاتب الفرنسي **Jacques-Henri BERNARDIN de SAINT PIERRE** أو في قصّته مجدولين

المقتبسة عن قصة **Sous les tilleuls** للكاتب الفرنسي **Alphonse KARR** وقد سبق هذا الكاتب رائد التنوير رفاعة الطهطاوي (1801-1873م) في محاولات كثيرة لعلّ أهمها ترجمة القانون الفرنسي.

ومهما يكن الأمر فقد قدّم أسلافنا ما كان بوسعهم أن يقدموه خدمة للّغة العربية، أمّا على أيّامنا هذه ومع تدني المنظومة التربوية - والتي لا ينكرها راغب في الإصلاح- فإن قطاع التعليم العالي يجد صعوبة لتأهيل وإخراج مترجمين متمرسين في العمل الترجمي، يشهد على ذلك مجموع المتخرجين والذين أسعفهم الحظّ في دخول عالم العمل ـ جلّهم، لكي لا نعمّم ـ والذين يجدون صعوبة في الترجمة من العربية إلى الفرنسية أو الانجليزية وغيرها من اللّغات أو العكس ناهيك عن الترجمة الفورية التي في الغالب لا يرضى عنها مستخدموهم ملقين اللّوم كلّه على الجامعة ومن أهّلوهم من الأساتذة؛ والحقيقة أن المسؤولية يشترك فيها الجميع، الطالب والأستاذ والإدارة والمجتمع ككلّ، ولن نتحدث عن إرث المنظومة التربوية فهي بادية للعيان لا تحتاج إلى توضيح.

وضع العربية "أنموذجا" في أقسام الترجمة:

لا يختلف وضع العربية في أقسام الترجمة عن غيرها من الأقسام فهي اللّغة التي يعبّر بها الطلبة في اتصالهم مع أساتذتهم وهي اللّغة التي يمارسون بها امتحاناتهم الناطقة بها، فإذن هي واحدة بمحاسنها ومساوئها فلا تظنّن مثلا أنّ طلبة قسم اللّغة العربية أفضل حالا ممن هم في الأقسام الأخرى وإن كان هناك نوابغ هنا وهناك، فلسنا نأخذ إلاّ بالأمر الغالب.

ولمّا كانت اللّغة أيّا كانت حجر الأساس لدراسة الترجمة نظريا وتطبيقيا سننظر في اللّغة العربية أوّلا، هل هي فعلا لغة صعبة كما يرى بعضهم؟ وأين يجد غالبية الطلبة هذه الصعوبة؟

الحقيقة ألاّ لغة صعبة إلاّ على من لم يألف ممارستها، فإن كانت العربية صعبة فكلّ لغات العالم صعبة، ذلك أنّ من لا يجيد لغة قال عنها أنّها صعبة؛ إنّ الصعوبة التي قد يتخيّل البعض أنّها سمة للّغة نابعة من عدم فهمهم لخصائصها، ويقيني أنّ في العربية خصائص تميّزها عن غيرها من اللغات، فهل يعلم جلّ طلبتنا أنّ اللّغة العربية هي أقدم اللّغات؟ يقول القس انستاس ماري الكرملي "إنّ لغة الضاد قديمة يشهد على ذلك سفر أيوب، فإنّ كثيرين من العلماء يذهبون إلى أنّ صاحبه وضعه بلغته العربية إذ فيه عبارات وتشبيهات ومجازات واستعارات لا تعرف إلاّ في العربية ولا شكّ أنّه نقل من اللغة العربية إلى اللّغة العبرية وبقيت في النقل أصول اللّغة ومبانيها وصيغها على أصلها"[2] ناهيك عن أن بعض الروايات تنسب العربية إلى إبراهيم عليه السلام.

وإن صحّ الحديث عن الرسول ﷺ فإنّ أوّل من كتب بالعربية إسماعيل عليه السلام أضف إلى ذلك أنّ العربية أكثر اللّغات صمودا أمام الزحف الثقافي والحضاري، فما من أمّة استطاعت محوها من على خارطة اللّغات على الرّغم ممّا تعرضت له من الأزمات والنكسات والاضطهاد ورغم الضعف الذي تشهده فإنّ من خصائصها أيضا أنها "لغة متصلة"[3] في حين بادت غيرها من اللّغات كاللاتينية ولم تعد إلاّ ذكرى، وليس ذلك إلاّ فضلا من الله تعالى إذ حفظها في قرآنه ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[4] ومن أهمّ الخصائص أيضا أنّ الأصول فيها ثلاثة: ثلاثي ورباعي وخماسي[5] والثلاثي عمدة الاشتقاق، فالجذر(ج ن ن) يحمل معنى الخفاء وبإمكانك الاشتقاق فتقول جنينة

وجنين وجنون وهي كلّها أمور خفية (فالجنينة تخفيها كثافة أشجارها والجنين يخفيه بطن أمّه والجنون يخفيه رأس صاحبه) وهي إلى جانب ذلك لغة مطواع تقبل اللّغة الأجنبية فتثقفها وتصيّر بعضا من ألفاظها جزءا من العربية يقبل الاشتقاق كما تقبله هي، نحو: تفلسف يتفلسف فلسفة فهو فيلسوف ...

ولأن المجال لا يتّسع لذكر كلّ خصائص العربية فقد اكتفينا بما عرضنا آنفا وننتقل إلى واقع الطلبة في قسم الترجمة.

وضع الطلبة في قسم الترجمة وتعاملهم باللّغة العربية:

يقول طلبة القسم أنّ تلقيهم للعربية هو نفسه لم يطرأ عليه جديد، وأنّهم على الحال نفسها من السّنة الأولى إلى الثالثة إذ لا رابعة للعربية لدارسي الترجمة، ولسنا ندري لم نحرم منها - يقول البعض - ونحن في أمسّ الحاجة إليها إذ تساعدنا على رفع المعدل لكنّها لا تختلف كثيرا عمّا درسناه في الثانوي.

إذن يعترف الطلبة بضعف المستوى في اللّغة العربية ومع ذلك تظلّ العربية مقارنة بدراسة اللّغات الأخرى أملا من أجل تحصيل العلامة لا غير، فمن السّهل الحصول عليها لأنّه لا يعقل على حدّ قولهم أنّ طالبا جامعيا في السّنة الرابعة لا يفقه العربية، والبعض يقول أن العربية في عصر العولمة لا مكان لها ونحن لا نحتاج إليها كثيرا فهي ضعيفة إزاء الانجليزية والفرنسية ونحن بعد تخرّجنا سنعمل على الترجمة إلى الفرنسية وبعدها الانجليزية.

أمّا الثلّة الباقية فلا علاقة لها بقسم الترجمة إلاّ أيام الامتحانات لانشغالهم بالدراسة في شعب أخرى كالقانون أو الطب أو بأشياء أخرى.

عموما يردّ الطلبة عجزهم في العربية إلى غياب البرنامج وإلى ضعف أساتذتهم في مرحلة سابقة كما يعترف البعض أنّ عدم المطالعة والقراءة ساهما في ضعفهم اللّغوي إزاء التعامل باللّغة العربية وغيرها من اللّغات، و هو شيء إيجابي إذ يعي الطلبة بعض مواضع الخلل في عدم استيعابهم للّغة العربية وغيرها.

وضع الأساتذة في قسم الترجمة:

ينقسم أساتذة قسم الترجمة إلى ثلاث مجموعات: أساتذة اللّغات وأساتذة الترجمة وأساتذة الحضارات والإعلام والاجتماع، وكلّهم يتّفق في ضعف أغلب طلبتهم وعجزهم في التعبير أو إيصال المعلومة باللّغات جميعها؛ وإن كان أساتذة اللّغات يصححون لغة واحدة فأساتذة الترجمة مجبرون على تصحيح لغتين مختلفتين لأفواج كثيرة العدد وهو أمر فوق طاقتهم، وعليه يقول بعض الأساتذة القدامى والذين تمرّسوا في تكوين طلبة الترجمة أن للأساتذة الجدد الحديثي العهد بالتخرج أو حتى أولئك القدامى الذين نال منهم الروتين مبلغه نصيب فيما نعاني منه من ضعف الطلبة إذ لا يدري أساتذة اللّغات ما يقدمون لطلبتهم وهم وإن اجتهدوا لا يقدّمون إلاّ ما يعتمد فيه على الحفظ فإذا انتهى الامتحان انتهى كلّ شيء معه.

أمّا أساتذة الترجمة فيفتقرون فضلا عن النقص في إحدى اللّغتين إلى منهجية تيسّر للطالب فهمه لدرس الترجمة، إذ النصوص المعطاة عشوائية تُختار كيفما اتفق، والمشكلة الحقيقية أن يسند درس الترجمة واللّغة إلى غير المؤهلين ممن شهاداتهم في تخصصات أخرى كالقانون أو الكيمياء ...وهي مسؤولية الإدارة أوّلا وأخيرا في توظيفها لمثل هؤلاء الأساتذة الذين يكونون أفضل وأحسن في غير هذا المجال، ومن المرارة أيضا أن نسمع بنقل أساتذة أكفاء في مجال الترجمة إلى

أقسام أخرى بدوافع شخصية ضاربين عرض الحائط الفائدة التي سيجنيها طلبة القسم.

والحلول ؟:

وإذن فإنّ واقع تأهيل طلبتنا في هذا المجال محفوف بكلّ هذه المكاره التي ذكرنا وبأخرى لم نذكرها لاتساعها، لذلك سنحاول وضع أيدينا على بعض الحلول التي نراها مناسبة ومنها:

1- لا ينتسب إلى قسم الترجمة من الطلبة إلاّ من كان جيّدا في اللّغات قابلا للتحسن ولا يتمّ هذا إلاّ بإجراء امتحان لانتقاء الأفضل في هذا المجال.

2- أن تسند مهام تدريس الترجمة إلى أهلها من المتخصصين في اللّغات أو الترجمة كلّ وفق اختصاصه.

3- تقليص عدد الطلبة في الفوج الواحد حتى يتسنى للأستاذ رعايتهم.

4- تجهيز مخابر الترجمة بما يلزمها من المعدّات والأجهزة الحديثة المعينة على تيسير وإيصال درس الترجمة.

5- الحاجة إلى تنمية الاهتمام بظاهرة القراءة لتأصيلها (...) وإزالة مظاهر الأمية بأشكالها.

6- بعث النشاطات العلمية مّما يتيح للطالب أن يكون مبدعا، كأن يكتب مقالا باللّغة العربية ثم يترجمه إلى اللّغة الهدف.

أما ما يخصّ المنهجية في تدريس طلاب الترجمة فإنّنا نرى:

1- أن يبتعد الأساتذة خاصة مدرسو اللّغة العربية عن الطريقة التقليدية في تلقين اللّغة إذ لم تعد ذات فائدة، وأن تقدّم المعلومة وفق مناهج تعليمية حديثة وبعيدا عن "الحشو الذي لا ينمي القدرات العقلية والفضول المعرفي"[7] ودون إغفال لتراثنا العربي الإسلامي وفيه من جهابذة الفكر واللّغة مّمن لا ينكر فضلهم كابن جني والخليل وعبد القاهر الجرجاني وهي مع الأسف شخصيات لا يعرفها طلبتنا وكأنّما قصرت على طلبة اللّغة العربية وآدابها.

2- يكون اختيار المواضيع المعدّة للترجمة تدريجيا من الأسهل إلى الأصعب ومن الأقصر إلى الأطول ومن المحسوس إلى المجرد، كأن يترجم الطالب أوّلا (مشهدا في وصف بيت إلى أن يصل إلى ترجمة مقطع في كتاب فلسفي).

3- الابتعاد عن الازدواجية في تلقين اللّغات خاصة اللّغة العربية التي نلاحظ زحف العامية عليها ولذلك ليس غريبا أن نجد بعض المترجمين الفوريين وقد غلبت عليهم عامياتهم فهذا مصري وهذا لبناني وهذا جزائري...

4- ألا تهمل الدلالات البلاغية والثقافية للكلمات والألفاظ أثناء درس اللّغة، فكلمة قمر أو بدر ذات قيم جمالية في الثقافة العربية، الأمر الذي لا نجده في الثقافة الفرنسية، مثل ذلك قولنا: هي جميلة كالقمر في العربية لكنها كالنهار في الفرنسية **Elle est belle comme le jour** إذ منطق الثقافة الفرنسية لا يقبل قولنا **Elle est belle comme la lune**، ولا يتمّ ذلك إلاّ من خلال تدريب الطالب على قراءة الدلالات في النص المطروح بين يديه.

وليست هذه الاقتراحات إلاّ وجهة نظر نبعت من أثر تدريس اللّغة العربية (كمثال لتدريس اللّغات) مدّة عشرين سنة بين الثانوي

والجامعي إذ أنّ الحمولة من اللّغات التي يأتي بها طلبة الثانوي قاصدين الجامعة لا تفي بالمطلوب، حتى أولئك الذين درسوا دراسة علمية يجدون أنفسهم بحاجة من جديد إلى تعلّم اللّغة الفرنسية من أجل فهم دروسهم في الطب أو الكيمياء أو الرياضيات ...ناهيك عن اللّغات الأخرى كالانجليزية والألمانية والاسبانية.

بعد كلّ هذا يبقى تأهيل الطالب ناقصا إذ لا يكتمل دوره كمترجم إلى أن يتمرّس في المهنة الترجمية، وهذه ليست مسؤولية الجامعة قدر مسؤولية الطالب في اقتحامه سوق الترجمة محاولا إثبات قدرته وكفاءته في الميدان الذي اختاره مجالا لنقل المعارف.

وخلاصة القول إنّ الترجمة "ليست نقل معارف فحسب بل تواصل حر بين الحضارات، ولا يكون هذا التواصل مثمرا إلاّ حين تؤرقنا روح المغامرة الإنسانية التي يذكيها نهج معرفي لاستيعاب إنجازات وفتوحات العلم المرتكزة على عبقرية الإنسان من أجل تغيير الواقع".[8]

هوامش:

1 - ديوان محمود درويش، المجلّد الثاني، دار العودة، بيروت، طبعة 1، 1994، ص 18

2 - أنستاس ماري الكرملي: نشوء اللّغة العربية ونموّها واكتمالها، المطبعة العصرية، القاهرة، 1938، ص 101

3 - مجموعة من الأساتذة: أحمد مطلوب: اللّغة العربية والوعي القومي، مجلة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نضمها مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع المجمع العلمي العراقي ومعهد البحوث والدراسات العربية، ط 1، أبريل 1984م، بيروت، ص 117

4 - سورة الحجر الآية 9

5 - انظر ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط 2، دار الكتاب المصرية، القاهرة، الجزء 1، ص 55-56

6 - مجموعة من الأساتذة: فكتور بله :الترجمة في الوطن العربي: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة،(مجلة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط 1، شباط/فبراير 2000م، ص 24

7 - نفسه: مناقشة عبد اللطيف عبيد: الترجمة في الوطن العربي، ص 58

8 - نفسه: مقال لـ شوقي جلال محمد: تقرير المسح الميداني لوضع الترجمة الراهن في الوطن العربي، ص 76